المادة: السرد السير ذاتي.

الفئة المستهدفة: سنة ثانية ماستر (تخصص أدب حديث ومعاصر).

المحاضرة6: السرد السير ذاتي في الأدب الحديث.

أهداف الدرس: أن يتعرف الطالب على ملامح السرد السير ذاتي في الأدب العربي الحديث.

إن السيرة الذاتية عند العرب لم تكن "أحسن حالا من غيرها من أنواع الأدب جميعا في عصر الانحطاط والضعف الذي عاشته البلاد العربية؛ مرحلة شهد فيها الشعر والنثر على حد سواء جمود شكليا وخواء مضمونيا"[1]، فقد "عاشت السيرة الذاتية في الأدب العربي نوعا من الخمول والتوقف عن النمو، في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، وبداية القرن الخامس عشر"[2]، غير أن ميلاد النهضة العربية الحديثة، كان لها دور بارز في تطور الجنس السير ذاتي على غرار كل الأجناس الأدبية الأخرى.

تمثل السيرة الذاتية أحد الأجناس الأدبية العربية الحديثة التي عرفت نمو وتطورا سريعا، نتيجة التأثر والاحتكاك بالآخر الغربي، ففي "نهاية القرن التاسع عشر، بعد أن اتصل العالم العربي بركب الحضارة الغربية، ظهرت إرهاصات هذا الفن في الأدب العربي الحديث، وقد كانت هذه الإرهاصات في معظم الحالات وثيقة الصلة بالموروث التراثي، وفي بعض الحالات متأثرة بالأدب الغربي"[3].

ولعل من أهم النماذج السيرة الذاتية نذكر "ما كتبه محمد بن عمر التونسي في كتابه تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان عام 1832م، فقد احتوت مقدمة هذا الكتاب على سيرة المؤلف، الذي قام بتأليف الكتاب بإيحاء من طبيب فرنسي اسمه بيرون، وقد أراد بيرون

لمذكرات محمد بن عمر أن تصبح كتابا للمطالعة في العربية، لكن محمد عمر قصر سيرته على جزء من مقدمة الكتاب، وحول سائر الكتاب إلى كتاب في التاريخ"[4].

إن قارئ هذه السيرة الذاتية يجدها اتسمت بكثير من "التكلف في اللغة، واختيار للقوالب التعبيرية الجاهزة"[5]، إلا أنه في مقابل ذلك كان "بارعا في تصوير حالته النفسية، وما يدور في داخله من هواجس ومن ذلك قوله: "ولما اقلعنا عن ساحل الفسطاط ناوين البعد والشطاط، تذكرت متاعب الأسفار، وما يحصل فيها من الأخطار، خصوصا لمن كان حاله كحالي في الفقر المدقع، والعسر المقنع، وتوسوس صدري، وانزعج، وبقيت في مشقة وحرج، ولا سيما وقد وجدت نفسي في غير أبناء جنسي، بل بين أقوام لا أعرف من حديثهم إلا القليل، ولا أرى فيهم وجها صبوحا جميلا..."[6].

وإلى جانب سيرة محمد بن عمر التونسي نجد كتاب الساق على الساق فيما هو الفارياق **لأحمد فارس الشدياق** الذي صور فيه الكاتب جوانب من "حياته ومغامراته، والتي تنطلق من طفولته إلى رحلاته فيما بعد على نحو صريح"[7]، وقد عده **احسان عباس** "أول سيرة ذاتية ظهرت في العصر الحديث"[8].

ركز **احسان عباس** جل اهتمامه على مميزات **الشدياق** في كتابه (الساق على الساق فيما هو الفارياق)، ومن ذلك قوله: "ومما يميز الشدياق، رحابة صدره، لتلقي المدنية الحديثة، ونظرته إلى المرأة،...ونقده العادات عند الغربيين والشرقيين على السواء"[9]، إلى جانب ذلك أشار **احسان عباس** إلى افتقار الكتاب لكثير من السمات الفنية المميزة للسيرة الذاتية بقوله: "ولكن غرامه باللغة، وانقياده لطبيعة المقامة، وإسرافه في التورية والتلميحات الجنسية، كل هذه تفسد عليه الاسترسال، وتعرقل المتعة في السرد... والمشاهد المصنوعة فيه تربو بكثير على الأمور الواقعية، كما أن الاستطراد في اللغة والنقد والسخرية والحوار المصنوع، كل هذه تخرجه عن أن يكون سيرة ذاتية بالمعنى الفني"[10].

ومن نماذج السير ذاتية في الأدب الحديث أيضا نجد ما كتبه **رفاعة الطهطاوي** في كتابه (تخليص الابريز في تلخيص باريز)، الذي "عده بعض الباحثين من إرهاصات السيرة الذاتية في العصر الحديث...وقد كان غرض رفاعة من هذا الكتاب وصف رحلته التي قام بها إلى فرنسا كما نصحه شيخه العطار، والحديث عن حياته في تلك البلاد، وذلك ليستفيد من كتابه، الطلاب الذين سيسافرون بعده إلى الغرب"[11].

ونجد من أبرز أعلام السيرة الذاتية الحديثة أيضا **علي مبارك** الذي "كتب سيرته عام 1889م قبيل وفاته بأعوام قليلة، ضمن كتاب الخطط التوفيقية"[12]، والذي تحدث فيه عن "مولده... أصول عائلته...وقد عني عناية خاصة بالحديث عن مراحل تعلمه في مصر وفرنسا ثم الحديث عن الوظائف التي شغلها. وقد كان يهتم بذكر التاريخ عند الحديث عن كل مرحلة من مراحل دراسته وكل وظيفة شغلها"[13]، ولعل هذا الاهتمام المبالغ فيه بذكر التواريخ في سيرته الذاتية كان سببا في بعث الملل في "نفس القارئ...هذا بالإضافة إلى افتقار أسلوبها للعذوبة والسلاسة وتصوير الصراع الداخلي للمؤلف، مما يبعدها عن الأسلوب الفني للسيرة الذاتية"[14].

إن ما نلاحظه على هذه النماذج للسيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، أنها لا تختلف كثيرا عن السير الذاتية العربية القديمة خاصة في جانبها الشكلي، على أنها تميزت في بعض جوانبها المضمونية بما تحمله من مضامين جديدة في الفكر والثقافة نتيجة التأثر الشديد بالثقافة الآخر الغربي.

الهوامش:

[1]– حفيظة سوالمية، رواية السيرة الذاتية –الرواية العربية الحديثة والمعاصرة أنموذجا–، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2014–2015، ص: 153.

[2]– تهاني عبد الفتاح شاكر، السيرة الذاتية في الأدب العربي، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان–الأردن، ط1: 2002، ص: 67.

[3]– المرجع نفسه، ص:67.

[4]– المرجع نفسه، ص:67.

[5]– المرجع نفسه، ص:68.

[6]– المرجع نفسه، ص:68.

[7]– ساميا بابا، مكون السيرة الذاتية في الرواية حكايتي شرح يطول لحنان الشيخ، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان–الأردان، ط1: 1433هـ–2012م، ص: 58.

[8]– تهاني عبد الفتاح شاكر، السيرة الذاتية في الأدب العربي، ص: 69.

[9]– المرجع نفسه، ص:69

[10]– المرجع نفسه، ص:69

[11]– المرجع نفسه، ص:70–71.

[12]– المرجع نفسه، ص:71.

[13]– المرجع نفسه، ص:71.

[14]– المرجع نفسه، ص:71–72.